مقدمة

قلت لأبنائي بعد صدور كتابي «إمداد الأمة في سيرة نبي الرحمة ﷺ»: أريد أن أكتب المزيد عن سيرة رسول الرحمة ﷺ، ولهذا ابحثوا لي عن عنوان في هذا الخصوص تحتاجه دول الغرب المتقدمة في القرن الحادي والعشرين. تشاور أبنائي بعضهم مع بعض، واختاروا لي عنوانًا هو: «قيادة نبي الرحمة ﷺ».

لقد اقترح (جون ميكسويل: John Maxwell) في مقدمة كتابه: «واحدٌ وعشرون قانونًا للقيادة» قائلًا: «برغم أننا في حاجة إلى الحديث بشكل جيد عن هذه الصفات الإحدى وعشرين التي نحتاجها لنكون قادة متميزين، لكن الحقيقة هي أن هذه الصفات كلها لا تتوفر مجتمعةً في أحدنا، على سبيل المثال فإن أدائي في ضوء خمسة من هذه الصفات ظل متوسطًا أو أقل من المتوسط، مع أنني مؤلِّف هذا الكتاب»[١].

بمعنى أن القائد المثالي هو الذي يتمتع بهذه الصفات القيادية الإحدى وعشرين، وبعض هذه الصفات نجدها بالفعل في بعض القادة، لكن لا يوجَد قائد يتمتع بها كلها مجتمعةً.

(١) جون ميكسويل، واحد وعشرون قانونًا لا تقبل الجدل من قوانين القيادة، الطبعة العاشرة، المقدمة، لا أحد منا يتمتع بهذه القوانين الإحدى وعشرين بشكل كامل.

لقد قرأت بعض الكتب التي ألَّفها مفكرون غير مسلمين في العصر الحاضر باللغة الإنجليزية، فوجدتهم جميعًا قد تحدثوا عن صفات كثيرة تشبه تلك الصفات نفسها باختلاف بسيط، فقمت باختيار ثلاثة وعشرين صفة من صفات القيادة من بينها، توافقًا مع السنوات الثلاثة والعشرين التي كان فيها رسول الرحمة ﷺ قائدًا، وتحدثت عنها بالتفصيل، وقد قرأت الآن ـ أيها القارئ العزيز ـ تحليل المفكر المعروف في عصرنا الحاضر (جون ميكسويل) عن القيادة؛ إذ يرى أن هذه الصفات والمبادئ كلها لا تتوفر مجتمعةً وبشكل جيد في قائد واحد، لكن التاريخ يشهد أن نبي الإسلام رسول الرحمة ﷺ قد طبَّق هذه المبادئ كلها عمليًّا قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

إن عامة المسلمين وغير المسلمين من الشباب يرجعون إلى كتابات المفكرين غير المسلمين فيما يتعلق بصفات القيادة وأصولها، ويثبت في أذهانهم ما استخدمه هؤلاء المفكرون من عناوين ومصطلحات، وقد نقلت هذه العناوين والمصطلحات كما جاءت عند هؤلاء المفكرين بلغتهم الإنجليزية؛ حتى يسهل على قُراء هذا الكتاب من غير المسلمين التعرف على صفات القيادة المثالية كما أَلِفوها في لغتهم، وليُدرِكوا أن هذه الصفات كلها ـ بلفظها ومعناها ـ توفرت كاملةً ومجتمعةً قبل أربعة عشر قرنًا في رسول الرحمة ﷺ، وسوف أقدِّم في هذا الكتاب نماذج عملية لا يمكن إنكارها على ما أقول، وإذا هيَّأ الله تعالى لي الفرصة بعد الفراغ من هذا الكتاب، فسأكتب ـ إن شاء الله تعالى ـ كتابًا آخر بعنوان: «ثلاث وعشرون صفة من صفات القيادة في القرآن المجيد».

إن كل دولة أو شعب في العالم ـ أو حتى هيئة أو مصنع ـ يحتاج بالضرورة إلى قائد كفء، وإلا فإن الأمل في النجاح والتقدم سيتحول إلى

حلم بعيد المنال، ويصبح كسراب؛ كلما تبعته لم تجده شيئًا. والسؤال الآن: مَن يكون ذلك القائد الكفء؟ فإذا تَمَعَّنّا ـ ولو على سبيل التسلية ـ في لفظ (Leadership)، يمكننا أن نستنتج ـ ولو بشكل جزئي ـ تعريفًا للقائد المثالي؛ فالمقطع الأول من الكلمة (Leader) تعني: ذلك الذي يقود جماعة من الناس ويرشدهم، أما المقطع الثاني من الكلمة (Ship) فيعني: الإرسال إلى مكانٍ آخر، بمعنى أن: القائد المثالي هو ذلك الذي يقوم بتربية أتباعه وتدريبهم، ثم يضعهم على طريق القيادة، مثلما يقول المؤلف الأمريكي المعاصر (توم بيترز: Tom Peters): «القادة الحقيقيون لا يخلقون أتباعًا، وإنما يخلقون قادة»[1].

في أيامنا هذه توجَد آلاف الكليات والجامعات والهيئات والمصانع والإدارات وغيرها في العالم، حيث يمكننا تعريف المئات بل والآلاف من المتعلمين الذين يَتُوقُون إلى المعرفة بموضوع القيادة هذا، كما يمكننا من خلال وسائل الإعلام الإلكترونية والمطبوعة في هذا العالم الذي أصبح قريةً كونية، تعريف مئات الآلاف من الناس في آنٍ واحد بالقيادة وهم جالسون في بيوتهم، وقد يصبح ـ ولو خمسة بالمئة ـ من هؤلاء قادة.

ولكن قبل ألفٍ وأربعمئة عام من اليوم، وفي وقت لم يكن لدى العرب جامعات أو مدارس أو معاهد تعليمية، ولا حتى مصانع أو وسائل إعلام إلكترونية أو مطبوعة؛ استطاع نبي الإسلام رسول الرحمة ﷺ أن يجعل من العرب ـ الأميين المتفرقين غير المتحضرين المعدومِي الهدف ـ أتباعًا له، ليس هذا فقط، وإنما منحهم لقب «الصحابة الأجلاء» أولًا، ثم استطاع في فترة لا تتجاوز ثلاثة

(1) American Author Tom Peter.

وعشرين عامًا أن يقوم بتربية مئات الآلاف من هؤلاء الصحابة الكرام وتدريبهم ليصبحوا قادةً عظماء، وأكد على الناس من وقته إلى قيام الساعة أن هدايتهم تكمن في اتباعهم والاقتداء بهم، مثلما يَروي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أصحابي كالنجوم، فبأيهم اقتديتم اهتديتم»[١].

والحقيقة أن بداخل كل شخص إمكانية أن يكون قائدًا مثلما يقول رسول الرحمة ﷺ: «ألا كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته»[٢].

لكن هذه المقدرة على القيادة لا تكون متساويةً في الناس جميعًا، وإنما تكون كبيرةً في شخص وبسيطةً في شخص آخر، كما أنه لا يمكن لشخص واحد أن يكون قائدًا في كل الميادين، ويبدو لي أن الله تعالى قد أودع في فطرة كل شخص ميزةً نسبية يتميز بها جنبًا إلى جنب مع الصفات الإنسانية الأخرى، ولكن للتعرف على هذه الميزة النسبية يحتاج الشخص إلى تحليل نفسه والتعرف عليها، مثلما جاء في الأثر: «مَن عرَف نفسه فقد عرَف ربه».

يعني أن الشخص الذي عرَف حقيقة نفسه يعرف مدى عجزه ومدى قُدرة ربه، وهكذا فإن الشخص الذي عرَف ميزته النسبية وبذل الجهد في صقلها، سيصبح ذات يوم قائدًا في الميدان الذي يخص ميزته هذه، ولهذا وجدنا لدينا الصدِّيق (سيدنا أبا بكر رضي الله عنه) والفاروق (سيدنا عمر الفاروق) والغَنِي (سيدنا عثمان الغني) وأسد الله الغالب وباب مدينة العلم (سيدنا عليًّا) وترجمان القرآن (سيدنا عبد الله ابن عباس) وأمين الأمة (سيدنا أبا عبيدة بن الجراح)، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) مشكاة المصابيح (٦٠١٨)، كتاب المناقب، باب مناقب الصحابة، الفصل الثالث.
(٢) البخاري (٧١٣٨)، كتاب الأحكام، باب ١.

وهكذا نجد اليوم في (لنكنز إن) بلندن ببريطانيا وفي المحكمة الدستورية العليا بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية أسماء أولئك المشرعين القانونيين الذين لا تزال الدنيا كلها تستفيد من قوانينهم حتى اليوم منقوشة بحروف بارزة، ومن بين هؤلاء اسم رسول الرحمة ﷺ، كما نجد أن المفكرين الذين كتبوا عن صفات القيادة وميزاتها قد استفادوا فيها من صفات القيادة وميزاتها لدى رسول الرحمة ﷺ؛ إذ إن هذه الميزات هي التي بفضلها وصل العرب المتفرقون الجهلاء غير المتحضرين في فترة لا تتعدى ثلاثة وعشرين عامًا إلى قمة الاتحاد والتعليم والتحضر والقيادة، بحيث رفرفت راية الإسلام على شبه الجزيرة العربية كلها، ثم ظَلَّلَت هذه الراية فيما بعدُ آسيا وأفريقيا، ووصلت إلى أوربا. واليوم تطوي الدول الغربية منازل التقدم مستفيدةً بتعاليم الإسلام، وبسيرة رسول الرحمة ﷺ، وليت المسلمين الذين يتحدثون عن تعاليم الإسلام يعملون بها، ويستفيدون من التقدم الذي حققه الغرب في مجال العلوم والتكنولوجيا، وعندئذٍ يمكن أن تتحسَّن أحوال المسلمين كثيرًا، وإليك في هذا الخصوص قولانِ فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية، فاقرأهما، ثم تعرَّف على صفات القيادة وميزاتها بعد ذلك، وحاول السَّير على نهجها:

- يقول رسول الرحمة ﷺ: «الكلمةُ الحِكمةُ ضالةُ المؤمنِ، فحَيثُ وجَدَها فهُوَ أحَقُّ بها»[(١)].

- ويقول سيدنا علي رضي الله عنه: «العِلمُ ضالةُ المُؤمِن، فخُذُوه ولَو مِن أيدي المُشرِكين، ولا يَأنَف أحَدُكُم أن يَأخُذَ الحِكمةَ مِمَّن سَمِعَها»[(٢)].

(١) الترمذي (٢٦٨٧)، أبواب العلم، باب ١٩.
(٢) جامع بيان العلم وفضله، ص١٤١.

ملحوظة:

مثلما أن الحكمة ضالة المؤمن ورأسماله، فإن الأمور التي تُعَلِّم الحكمة وكذا الاختراعات هي ضالة المؤمن ورأس ماله أيضًا، وهي التي عَرَّفَ بها مسلِمو القرون الوسطى العالمَ كله، لكننا مع الأسف الشديد ضَيَّعنا كل هذا. ألم يَحِن الوقتُ بعد أن نبحث عن ضالتنا ورأس مالنا من جديد؟ انظر ما قاله شاعر الشرق العلامة محمد إقبال في هذا الخصوص، ثم اجلس مع نفسك وتمعن فيه:

ـ هل تدبرت ذات مرة أيها الشاب المسلم، أي فلك ذلك الذي أنت نجم ساقط منه.

ـ فلقد رَبَّتكَ تلك الأُمّة في أحضان محبتها، تلك الأمة التي سَحَقَت تحت أقدامها تاجَ رأسِ «دارا».

ـ ضَيَّعنا نحن ما ورثناه من أسلافنا، فألقَت بنا السماء من الثريا إلى الثرى.

ـ لكن لآلئ العلم في كتب أجدادك، كلما رأيناها في أوربا تمزَّقَ القلبُ أشلاءً.

ـ وا أسفاه لفشلنا! ظللنا نفقد متاع القافلة، وظل الإحساس بالخسارة يتلاشى من قلب أهلها.

ـ هذا هو حكم قاضي القدر منذ الأزل، عقاب جريمة الضعف موت الفجاءة.

وهنا أتقدم بالشكر الواجب إلى سيدنا العلامة محمد دين سيالوي الذي تجشَّم عناء قراءة هذا الكتاب، وأحسن إلينا بمشوراته.

العبد الفقير إلى الله

مؤسس وعميد جامعة الكرم، بريطانيا

٩ جمادى الآخرة ١٤٤٤هـ

الموافق ٢ يناير ٢٠٢٣م